اتقوا الله فى أخيكم !

للدكتور زكى مبارك

ذهب الأستاذ الزيات لزيارة صديقه (عين) فوجده مضى لقضاء أيام العيد بين أهله فى المنوفية ، ثم نظر فى غرفة الاستقبال فرأى « منظار » الصديق فوق إحدى المناضد ، فوضعه على عينيه ليعرف إلى أى حد تبدو الخفايا لمن يحمل ذلك المنظار العجيب ، ثم هام فى شوارع القاهرة يتوسم وجوه الناس فرأى فيهم غرائب وعجائب يشيب من هولها الوليد ، فتفزّع وقال وهو يحاور ذلك الصديق :

«أتريد أن أردّ إليك منظارك ، أم تسمح لى أن أجرّبه على عين الدكتور مبارك ؟ »

وما أحب أن أعود إلى تشريح مقال الأستاذ الزيات ، لأنه مقال محزن ، وأنا أخاف على نفسى وعلى القراء من النظر فيه من جديد

ولكن لا بأس من النظر فى التجربة التى يقترحها أخونا الزيات ، وهو يريد أن أرى العالم مرة من وراء ذلك المنظار الذى نقل فهمه للدنيا والناس من حال إلى أحوال

وأسارع فأقول : إن ما رأيته بالعين الطبيعية فيه الكفاية وفوق الكفاية ، فمن الرفق برجل فى مثل حالى أن تُعفى عيناه من النظر إلى الناس بمنظار يفضح ما خفى واستتر من دقائق المساوى والعيوب

الزيات هو الذى يحتاج إلى منظار يرى به خلائق الناس ، لأنه كثير التلطف والترفق ، ومن كان كذلك فهو قليل التعرض لآفات الناس ، ومن هنا يقلّ علمه بما فيهم من ذميم الغرائز وذميم الخصال

أما أنا ، فقد دخلت على الناس فى جحورهم وأوكارهم ، وما زلت أهيجهم بقلمى حتى أسموني أعنف ما يملكون من هرير ونباح وعواء . وهل ابتُلى أحد بأهل زمانه كما ابتُليت ؟ وهل عانى أحد من لؤم زمانه بعض ما عانيت ؟

وهل بين قراء اللغة العربية فى مصر والشرق من يجهل بليتى بزمانى ؟

لقد شكوت وهرى وشكوت ثم شكوت ، حتى عطف علىّ أعدائى ، فما حاجتى إلى منظار أرى به الستور من خلائق الناس ، وقد اكتوت يدى واكتوى قلبى بالسعير الذى يتمرد كلما سمع باسمى أو رآنى ؟

ويزيد فى الغم والكرب عرفانى بأنى لم أكن رجلاً لئيما حتى أقاسى من الناس ما قاسيت . وهل رأى الناس فى القديم والحديث صديقاً فى مثل أدبى وكرمى وسخائى ؟ ومن هو الرجل الذى يجرؤ على القول بأنه أعرف منى بالواجب ، وأحفظ للعهد ، وأحرص على مقابلة الجميل بالجميل ؟

وهل كان الذين ينوشوننى بألسنتهم وأقلامهم إلا خَلْقاً بنيتُ أقدارهم بقلمى ولسانى ؟

دلونى على صديق واحد أسأت إليه فى محضر أو مغيب !

لو كنت رجلاً لئيما لنسفت أعدائى وخصومى فى يوم أو يومين ثم استرحت من التفجع على مصاير الناس إلى مهاوى البغى والعقوق ؛ ولكنى رجل كريم يكره الغدر ويستعيذ بالله من العدوان على الناس ، وذلك باب من الضعف الشريف ، وأنا به مزهوّ مختال

وما الذى ينكر علىّ أهل زمانى حتى يصدونى بغدرهم عن الثقة بأبناء آدم وحواء ؟

أنا أعرف ما ينكرون علىّ ، فقد ساءهم أن أسجل ما فى زمانى من صغائر ومعايب وموبقات . ساءهم أن أفضح سرائر الأدعياء ، وأن أقهرهم على الاستهانة بالأدب المزيّف لتُقبل عقولهم وأذواقهم على الأدب الصحيح

وهل أخطأت حتى ألقى من بغيهم ما لقيت ؟

إن أعدائى يقولون فى كل وقت إن مصر هادية الشرق ، فكيف يُلام من يوجّه المصريين إلى أصول الصدق والعدل لتصح لهم السيطرة الأدبية على الشرق ؟

وهل يعرفون لى ذنباً غير هذا الذنب الجميل ؟

إن كان فى هذا البلد من يؤمن بأنه ضحّى فى سبيل الأدب بأعظم مما ضحيت فليتقدم ليحمل بعض ما أحمل من ثقال الأعباء

ذلك رأيى فى نفسى ، وهو حق ، فليكذبنى من يجرؤ على مساواتى من أهل الأدب والبيان

وما قيمة مصر فى الشرق أو الغرب إذا صح لأهلها أن يقهروا رجلاً مثلى على اليأس من العدل ؟

وبأى حق يدعونى الناس إلى التلطف والترفق وأنا لم أر منهم غير الظلم المُبين ؟

وفى أية شريعة يفرض على الرجل المظلوم فى وطنه أن يعلن أنه من السعداء ؟

ومن الذى يراجع الظالمين إذا سكت قلم الأديب ؟

حدثونى كيف يسكت من يرى أصدقاءه يأكلون لحمه بلا تهيب ولا إشفاق ؟

حدثونى كيف يَحرُم الغضب على رجل يرى تخلُّف العقل فى بلد يستطيل أهله على الشرق باسم العقل ؟

نحن فى مصر التى سبقت جميع الشعوب إلى المدنية ، فمن حقنا علينا أن نرجو حرية التعبير عما نعانى من معاطب وحتوف

ومن يسمع شكوانا إذا تجاهلت مصر أننا بفضل جبروتها أشقياء ؟ !

إلى من نتوجه إذا تعامى الوطن الغالى عن مآسينا الدامية ؟

آه ! ثم آه ! !

فى وطن الأزهار والرياحين تموت أفئدة وقلوب

وفى الوطن الذى شرع مذاهب العدل بوحى النيل الذى لا يخلف الميعاد تموت أرواح حساسة واعية ممدوًّا عليها بسهام الظلم البغيض

فى وطن النيل الذى لا يخلف الميعاد تضيع جميع المواعيد

إحذروا ، ثم احذروا من أن أراكم بعين الناقد ، يا أبناء هذه البلاد

لقد نظرت إليكم بعين المحب فلم أر غير مآثم ومنكرات ، فكيف تكونون لو نظرت إليكم بعين الناقد المنصف ؟ كيف تكونون وأنتم حرب على الصديق الأمين ؟

ويريد الزيات أن أراكم من وراء المنظار الذى كشف له من الطبائع ما لم يكن يعرف ، فهل يظن بى السفه والحمق حتى أتعرض للستور من عيوبكم ومساويكم !

أنتم أجمل الخلق فى أعين من يرونكم من بُعد ؛ ولكنكم « أجمل » الخلق فى أعين من يرونكم من قرب ، وأنا منكم قريب ، فما أعظم شقائى !

إسمعوا ، يا بنى آدم من أهل هذه البلاد

أنتم وتقتم بأدبى ، وليس فيكم من يخاف أن أضيع عليه حظًّا غنمه بأى سبب من الأسباب ، وبفضل هذه الثقة تجترحون ما تجترحون ، فخوضوا كيف شئتم فى أوشال الأكاذيب والأراجيف ، فلن أجازيكم بغير الصفح والغفران

هات المنظار ، يا زيات ، هات

هات المنظار لأرى به عيوبى ، وأنسى التفكير فيما عانيت من أصدقائى ، ويرحم الله عهداً كان لى فيه أصدقاء !

حملت المنظار لأرى عيوبى ، فماذا رأيت ؟

رأيتنى أخطأت أعظم الخطأ حين توهمت أن بنى آدم هم جميعاً من طراز ذلك الصديق النادر الذى صعُب عليه أن أعيش وكان يحب أن أموت !

وهل هناك جُرم أقبح من الجرم الذى اقترفت ؟

مضت أعوام وأعوام وأنا أتلقى فى كل يوم رسائل من قلوب تُقسم بأنها قادرة على الطب لجروح قلبى ، فهل استمعت نداء تلك القلوب ؟

أنا أتلقى فى كل يوم رسائل من فلسطين وسورية ولبنان والحجاز واليمن والعراق وتونس والجزائر ومراكش فهل فكرت فى الإجابة عن تلك الرسائل الودية ؟

وكيف وأنا أتجاهل ما يصل إلىّ من أصوات القلوب فى مصر والسودان ؟

وكان ذلك لأنى يئستُ من بنى آدم بفضل الأصدقاء الذين سقيتهم الشهد فسقونى الصاب !

فما الذى يمنع من الاستجابة لدعاء تلك القلوب ؟

ما الذى يمنع وأنا أعيش محروماً من نسيم الصداقة والحب ؟

وهل يرفض من يعيش فى مَسبَعة أن يخرج إلى الحواضر المأهولة بأرواح الناس ؟

يمنع من ذلك أن أطياف الغادرين تصدمنى حيثما توجهت ، فالدنيا كلها هى وجوه الذئاب التى شقيتُ فى تربيتها لتقوى على مضغ لُحى وعرق عظامى

الدنيا كلها هى فلان وفلان الذين خلدت أسماءهم فى مقالاتى ومؤلفاتى ليصح لهم البقى علىّ باسم الأدب والدين

هات المنظار ، يا زيات ، هات

حملت المنظار لأرى عيوبي ، وما أكثر عيوبي !

رباه ، رباه ! !

ما هذا الذي أرى ؟

ذلك صديق أهجم عليه هجوماً صوريًّا لأرفع اسمه بين الأسماء فيراني من الأعداء

وذلك رفيق أدله على الخير فيراني من الآثمين

وذلك صاحب تشغلني الشواغل عن زيارته فيراني من الغادرين

وذاك أخ عزيز لا تهمه غير الظواهر ويغفل قلبه عن الخدمات التي أؤديها إليه في الغيب فيراني من الجاحدين

فلأية حكمة خلق الله بعض الناس بلا بصائر ولا قلوب ؟

أيكون الله أراد أن يمتحننا بخلقه حتى نؤمن صادقين بأنه صاحب الفضل الأول والأخير في الطب لجراحنا الدامية ؟

إن كان ذلك ما يريد فقد رضينا بما يريد

ولكن الله يعلم أننا أصغر من أن نأنس بنجواه . ولا بدّ لنا من مخلوقات نساقيها كؤوس الود حين نشاء ، ونرى فيها صور أحلامنا وأوهامنا حين نريد ، فمتى يمنّ الله علينا بأطياف تلك المخلوقات ؟

كم تمنيت أن أراك في خلقك ، يا فاطر الأرض والسموات . ولو استطعت لشغلت نفسي بك عن خلقك . وكيف أستطيع وأنا لا أملك السموّ إليك ، أيها الروح المسيطر على جميع الوجود ؟

أنا أعترف بذنوبي

لي أصدقاء ضيعتهم ، وكنت من الظالمين

منهم ذلك الروح الذي يشق في أن يُنطق لساني بالاعتراف بأنه صديق ، والذي يكتب إليّ ما يكتب ثم لا يظفر بجواب

وكان في يدي أن أملك ذلك الروح ملكاً أبدياً وأن أصوغ من نجواه رسائل وقصائد أسيطر بها على الخلود

توسل إليّ ذلك الروح أن أحفظ عهد الوفاء وأن أعلن أني له صديق ليحدّث أهله بأنه موصول الأواصر برجل له قلب

ومن أجل هذا الروح الذي أخلفتُ آماله كل الإخلاف تحكم القادير بأن أعيش في دنياي بلا صديق

فيا أيها الروح الذي يحدّث أهله بأني لا أنساه ولن أنساه ، أيها الروح الذي يدعوني فلا أجيب ، إعرف ثم اعرف أن الله انتقم لك مني ، فأنا اليوم بلا صاحب ولا رفيق

هات المنظار ، يا زيات ، هات

هات المنظار لأرى عيوبي ، وما أكثر عيوبي !

هات المنظار لأرى الأسرة المكونة من أربعة أرواح ، الأسرة التي ودعتني بالدمع المحرق يوم الفراق

فإن سمعتم ، يا قراني ، أنني سأقضي بقية العمر في كرب وبلاء ، فاعرفوا أن ذلك جزاء الغدر لمن يتناسى فضل تلك الأرواح

غرتني منزلتي الأدبية فتجاهلت أقدار تلك الأكباد الرقاق ، فمتى أرجع إلى مساهرة النجوم في صحبة الأكباد الرقاق ؟

فإن تقتلني اليأس من عدل الأهل والأصدقاء فقد كنت الظالم الأثيم

والله أرحم من أن يعاقب قلباً يعترف بذنوبه وخطاياه

أنا باقٍ على العهد يا أحبابي ، ويرحم الله من قال :

لقد صَدَدْنا كما صددتم فهل ندمتم كما ندمنا

زكي مبارك

رحلات

عبد الوهاب عزام

صفحات من البيان الممتع سجل فيها الدكتور عبد الوهاب عزام ما رآه وما أوحت إليه أسفاره في البلاد العربية والإسلامية : (الحجاز ، والشام ، والعراق ، وتركيا ، وإيران) وفي أوربا ، مع نبذ من تاريخ هذه البلاد ، وطرف من عواطفه العربية والإسلامية . وجعله في أسلوب بليغ سهل يفيد ناشئة الأدب ويجدي على المتأدبين .

وقد طبع في مطبعة الرسالة في نحو ٤٠٠ صفحة تتضمن كثيراً من الصور

وثمنه ١٢ قرشا ويطلب من مجلة الرسالة

ومن لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن فتى النيل